

# التوجيه الدلالي للتقديم والتأخير في الآيات المتشابهة الألفاظ عند بدرالدين بن جماعة (ت: ٧٣٣هـ) في كتابه (كشف المعاني في المتشابه من المثاني)

أ.د. هيو عبدالله كريم  
جامعة السليمانية/كلية اللغات

الباحث: دليز عبدالله أحمد (طالب الدكتوراه)  
جامعة السليمانية/كلية اللغات

## يوخته

له زمانى عه ره بيدا پيش وپاشخستنى كه رهسته زمانيه كان گورانكارى واتايى -سيمانتىكى- دروست دهكات. وه له قورئانى پيرؤزدا رونترو ووردتر ئەم بابە ته بهديارده كه ویت، به تاييهت له و ئايه ته پيرؤزانده كه هاوشيوهن له كه رهسته زمانيه كاندا وته نها جياوازن له پيش وپاشخستنياندا. له م تويزينه وه يه دا جياوازي واتايى نيوان ئەو ئايه ته پيرؤزانه، كه زاناي گه و ره (بدرالدين بن جماعة) كارى له سه ركردون، خراوه ته پوو له سه رپيازي (وه سفى شيكارى).  
تويزينه وه كه ش له پيشه كى ودهروازه يه كى تيؤرى و دوو پار پيكها تووه، له پارى يه كه مدا باس له جياوازي واتايى پيش وپاشخستنى ئەو ناو وكردارانه كراوه كه مؤرفيمه كانى به ستنه وه له نيوانياندا به كارها تووه، ههروه ها له پارى دووه مدا جياوازي واتايى پيش وپاشخستنى پيشناوه كان و ناوه كان خراوه ته پوو، به جورپك كه يه كييك له م كه رهسته زمانيه له ئايه تيكددا پيشخراوه وله ئايه تيكي تردا پاشخراوه.  
له كؤتابى تويزينه وه كه شدا گرنگترين ئە نجامه كان خراوه ته پوو.

## Abstract

In Arabic language, changing the position of linguistic elements- pre and post mentioning, creates different semantic senses.

In Holy Quran, this subject appears more concisely and precisely, especially, in resembling verses of Quran. In this research, the semantic differences of these verses which, a great scientist ( Badr Al-din bn Jamaha) has worked on it, have been illustrated as descriptive analysis.

The research is comprised of an introduction, theoretical frame and two parts. In the first part, the semantic differences of nouns, pre and post elements which have been joined through linking devices, have been explained. The second part is concerned with, the semantic differences due to pre and post nouns and adjectives have been demonstrated in a way linguistic elements have previously been mentioned in a verse of Quran while, afterwards in others. Finally, the most important results have been displayed.

## مدخل:

الآيات المتشابهة الألفاظ أو المتشابهة اللفظي علم من علوم القرآن (ينظر: الزركشي، ١٩٧١: ١١٢/١)، والمقصود به "هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء" (الزركشي، ١٩٧١: ١١٢/١)، والمراد بـ(القصة الواحدة) المعنى الإجمالي الواحد الذي يأتي في آيات متعددة، بصور متشابهة بينها شيء من

الاختلاف، فليس المقصود المعنى المشهور للقصة، كقصة موسى -عليه السلام-، بدليل قول الزركشي: "ويكثر في إيراد القصص"، فالمتشابه اللفظي يكثر في القصص، ولا ينحصر فيها. أما المراد بتوجيهه فهو البحث في أسرار الآيات المتشابهة الألفاظ، وبيان دلالاتها المتنوعة في سياقاتها المختلفة.

لاحظ العلماء قديماً أن في القرآن آيات متشابهة في الألفاظ والتراكيب، فجمعوها دون توجيهها، ثم انبرى لتوجيهها علماء أجلاء، منهم بدرالدين بن جماعة (ت: ٧٣٣هـ)، حيث أُلّف كتاباً في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن، وسماه (كشف المعاني في المتشابه من المثاني).

وأشار ابن جماعة إلى سبب تأليف كتابه، فقال: "ربما لهج بعض فضلاء الحاضرين بمسائل حسنة غريبة، وسأل عن مناسبات ألفاظها لمعانيها العجيبة، مما لم يذكر بعضه أو أكثره في كتب التفسير المشهورة، ولا ألقت -والصواب: ألممت (ابن جماعة، ١٩٩٠: ٨٠، الحاشية: ١)- به في أسفارها المسطورة..." (ابن جماعة، ١٩٩٠: ٧٩-٨٠)، أي: قلّة التصنيف في المتشابه اللفظي وندرته -لاسيما في توجيهه- كانت سبباً في إقدامه على التأليف فيه.

أما الغاية من تأليف كتابه فهي إبراز الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم، فقال: "قد عُلم أن القرآن نزل بأفصح لغات العرب وكلامها، وتضمّن فنون أنواع فصاحتهم وأقسامها، توسيعاً لمجالهم في معارضة شيء منه إن قدروا، وبياناً لعجزهم عن الإتيان بمثل ذراه ولو تسوّروا. فلذلك تنوّعت موارده، وتشعبت مقاصده، وعمت فوائده، وناسبت ألفاظه مواضعها، وصادفت فصاحته مواقعها. وسأذكر -إن شاء الله- بعض ما يظهر به ما خفي من ذلك، سالماً في إيراد أقرب المسالك" (ابن جماعة، ١٩٩٠: ٨١). فتكمن أهمية هذا العلم في بيان عظمة القرآن وإعجازه ببلاغته النافذة التي عجز عنها البلغاء دالاً بذلك على صدق نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وفي هذا البحث بيان الآيات التي تشابهت بالتقديم والتأخير، حيث قُدّمت لفظة في آية وأُخّرت في أخرى، وبيان دلالة هذا الاختلاف النظمي عند ابن جماعة. ومنهجنا في هذه الدراسة وصفي تحليلي.

والتقديم والتأخير أحد أساليب البلاغة، ويعدّ في اللسانيات الحديثة عنصراً من عناصر التحويل، ويسمى التحويل بالترتيب (ينظر: رابح، ٢٠٠٨: ٧٣). والمراد به هو "جعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية أو بعدها" (الطوفي: ١٨٩)، أي: يقوم على مخالفة أصل الوضع في الجملة العربية لتحقيق دلالات يستدعيها السياق، فنجد تغييراً في مواقع الكلمات داخل الجملة، فهناك خروج عن الرُّتب النحوية التي تحتلها العناصر المكوّنة للجملة (ينظر: محمد الشاوش، ٢٠٠١: ٤٩١/١). وهذا من سنن العرب، حيث يقَدّمون ما هو في المعنى مؤخّر، ويؤخّرون ما هو في المعنى مقدّم (ينظر: أحمد بن فارس، ١٩٩٣: ٢٤٤)، ولا يكون التقديم والتأخير اعتباطاً لغير علة بل يكون لغرض بلاغي دلالي، ف"لو أُخّر المقدّم أو قُدّم المؤخّر لتغير المعنى" (ابن الأثير، ١٩٩٥: ٣٥/٢).

ولا يجوز التقديم والتأخير إلا مع سلامة المعنى من اللبس، وصحة التعبير (ينظر: تمام حسان، ١٩٩٤: ٢٠٨)، قال المبرّد (ت: ٢٨٥هـ): "وإنما يصلح التقديم والتأخير إذا كان الكلام مَوْضِحاً عن المعنى، نحو: ضرب زيداً عمرو، لأنك تعلم بالإعراب الفاعل والمفعول" (المبرّد، ١٩٩٤: ٩٥/٣-٩٦)، وقال أيضاً: "وإنما يجوز التقديم والتأخير فيما لا يُشكّل، تقول ضرب زيد عمرو، وضرب زيداً عمرو، لأن الإعراب مبين، فإن قلت: ضرب هذا هذا، أو ضربت الحبلى الحبلى، لم يكن الفاعل إلا المتقدّم" (المبرّد، ١٩٩٤: ١١٨/٣).

وللتقديم والتأخير أهمية كبيرة، وفوائد كثيرة، ووقع في النفوس، وقد بيّن عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) أهمية هذا الأسلوب بقوله: "هو بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسعُ التصرف، بعيدُ الغاية... لا تزال ترى شعراً يروّك مسمّعه ويلظف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدّم فيه شيءٌ وخوّل اللفظ عن مكان إلى مكان"

(الجرجاني، ١٩٩٥: ٩٦). ووصف ابن الأثير (ت: ٦٣٧هـ) اتساع هذا الباب، وما فيه من أسرار بديعة بقوله: "هذا باب طويل عريض، يشتمل على أسرار دقيقة" (ابن الأثير، ١٩٩٥: ٣٥/٢).

وهناك أغراض لتقديم لفظ على آخر، وأهمها العناية بالمتقدم، بل "هي مبعث التقديم والتأخير ومركزه الذي تدور في فلكه الخواطر، وبؤرته التي تتجاذب معها النفوس وتتنافر" (علي، ٢٠٠٦: ١٤٣/١)؛ لذا لم يذكر سيبويه (ت: ١٨٠هـ) غيرها، فقال عند كلامه على تقديم المفعول على الفاعل: "كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يُهَمَّانهم ويَعْنِيانهم" (سيبويه: ٣٤/١).

وإذا كان غرض التقديم والتأخير لدى سيبويه هو العناية والاهتمام فإن عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) -بعدهما ذكر غرض التقديم والتأخير بقوله: "واعلم أنَّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غيرَ العناية والاهتمام" (الجرجاني، ١٩٩٥: ٩٧)- بيّن أن قصر التقديم والتأخير على العناية والاهتمام دون تبيين موطن هذه العناية وسرّها لا تتذوق به حلاوة هذا الأسلوب، فقال: "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنه قُدِّمَ للعناية، ولأنَّ ذكره أهمُّ، من غير أن يُذكَرَ من أين كانت تلك العناية، وبمَّ كان أهمُّ، ولتخيلهم ذلك قد صَغُرَ أمرُ التقديم والتأخير في نفوسهم، وهَوَّنوا الخطبَ فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبُّعه والنظرَ فيه ضرباً من التكلف، ولم تُرَ ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه" (الجرجاني، ١٩٩٥: ٩٨)، أي: ينبغي أن نعرف دواعي العناية بالمتقدم حتى نرى قيمة هذا الأسلوب، وإلا تصغر أهميته، لذلك حدّر من الوقوف عند القول بالعناية والاهتمام دون معرفة السبب وبيانه.

وإذا وقع التقديم والتأخير في مكانه فإنه يدل على التمكن من البلاغة والفصاحة، قال الزركشي (ت: ٧٩٤هـ): "هو أحد أساليب البلاغة فإنهم أتوا به دلالة على تمكّنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام، وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق" (الزركشي، ١٩٧١: ٢٣٣/٣)، فلهذا الأسلوب أثر في المتلقي لما فيه من العدول والبلاغة الرفيعة، وهو "فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام" (فاضل، ٢٠٠٧: ٥٣).

وبلغ القرآن الكريم في هذا الأسلوب الرفيع -وفي غيره من الأساليب البلاغية- الذروة في وضع الألفاظ الوضع الذي تستحقه في التعبير، ولم يكتف في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه، بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة، ونظر إليها نظرة شاملة في القرآن كله، فتجد التعبير متناسقاً مع غيره، كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة (ينظر: فاضل، ٢٠٠٧: ٥٣).

ويمكن تقسيم التقديم والتأخير الوارد في القرآن الكريم على ثلاثة أقسام: (المطعني، ١٩٩٢: ١٤٦/٢-١٤٧)

- ١- تقديم ما حقه التأخير: وهو أن المقدم فيه له رتبة معلومة في التركيب كالخبر رتبته التأخير عن المبتدأ.
- ٢- تقديم ما ليس له رتبة معيّنة في التركيب، لكنه قد يقع مصاحباً لشبيهه له أو أشباه مقدماً عليها، كتقديم الأموال على الأولاد في كل موضع اجتمع فيه في القرآن.
- ٣- هذا النوع يختلف عن النوعين السابقين، حيث لا يظهر تقديم وتأخير في العبارة إلا بعد مقارنتها بموضع آخر اتحد معها في أصل المعنى، فنجد أن الكلمة قُدِّمت في موضع، وأُخِّرت في آخر. وسماه الدكتور عبد العظيم المطعني (ت: ١٤٢٩هـ) التقديم غير الاصطلاحي، وذكر بأنه "سمة خاصة بأسلوب القرآن" (المطعني، ١٩٩٢: ١٦/١). وابتكر المطعني هذا المصطلح؛ لأنه لم يجد هذا النوع من التقديم والتأخير عند البلاغيين. والتقديم والتأخير في الآيات المتشابهة الألفاظ أمثلة لهذا النوع.

## التوجيه الدلالي للتقديم والتأخير في الأسماء والأفعال المتعاطفة

في الآيات المتشابهة الألفاظ التي ورد فيها اسمان متعاطفان أو فعلاّن متعاطفان قد يقدّم أحدهما على الآخر في آية، ويؤخر عنه في أخرى، ولهذا التقديم والتأخير دلالة يقتضيها السياق، وإلا كان ضرباً من العبث. وحاول بدر الدين بن جماعة أن يبيّن المقصود من وراء هذا التغيير في نظم تلك الآيات.

## • أولاً/ التوجيه الدلالي للتقديم والتأخير بين الأسماء المتعاطفة:

وقف ابن جماعة على عدة أمثلة من هذا الباب، وهي:

## -١ التقديم والتأخير بين (خلق السموات والأرض) و(اختلاف الليل والنهار):

قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ) (آل عمران: ١٩٠)

أ وقال: (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ) (يونس: ٦)

قدّم خلق السموات والأرض على اختلاف الليل والنهار في الآية الأولى، وأخر عنه في الآية الثانية، وسر ذلك أنه "لما قال هنا -أي: في (آل عمران)-: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (آل عمران: ١٨٩) أتبعه بخلقها، ثم بـ (اختلاف الليل والنهار).

وفي (يونس) لما قال: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) (يونس: ٥) إلى قوله: (لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ) (يونس: ٥)، وإنما ذلك باختلافهما: ناسب ذلك اتباعه بذكر (اختلاف الليل والنهار)" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ١٣٥). يستدعي السياق في (آل عمران) تقديم خلق السموات والأرض؛ لأنه ذكرت السموات والأرض في الآية التي تسبق هذه الآية، فالأنسب ذكرهما قبل اختلاف الليل والنهار.

أما السياق في (يونس) فيقتضي تقديم اختلاف الليل والنهار؛ حيث ذكر في الآية التي قبلها معرفة حساب الأوقات من السنين والأشهر والليالي والأيام، وذلك بتعاقب الليل والنهار المنوطين بطلوع الشمس وغروبها. (ينظر: أبو السعود، ١٢٠/٤)

لم أجد أحداً وجّه التقديم والتأخير في الآيتين قبل بدر الدين بن جماعة، فانفرد بذلك، لكنه فاتته آية (البقرة) التي قدّم فيها خلق السموات والأرض على اختلاف الليل والنهار مثل آية (آل عمران)، وهي قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) (البقرة: ١٦٤).

وبحث في سر ذلك، فوجدت ذكر السموات والأرض قبل هذه الآية في (البقرة) أربع مرات (البقرة: ٣٣، ١٠٧، ١١٦، ١١٧)، ولم يذكر الليل والنهار، فناسب تقديم السموات والأرض.

وفضلاً عما ذكر، فقد لفت نظري عدد مرات مجيء (السموات والأرض) معاً في السور الثلاث، فقد ورد مجيئهما في (البقرة) ست مرات (البقرة: ٣٣، ١٠٧، ١١٦، ١١٧، ١٦٤، ٢٥٥)، وفي (آل عمران) ست مرات (آل عمران: ٨٣، ١٣٣، ١٨٠، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١)، وفي (يونس) أربع مرات (يونس: ٣، ٦، ٥٥، ١٠١). وورد مجيء (الليل والنهار) معاً مرة واحدة في كل سورة من هذه السور. وهذا يدل -والله أعلم- على أن العناية بـ(السموات والأرض) في سياق سورتي (البقرة، وآل عمران) أكثر؛ لذلك قدّم ذكرهما على اختلاف الليل والنهار.

## -٢ التقديم والتأخير بين اللهو واللعب:

قال تعالى: (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) (الأعراف: ٥١)

وقال: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت: ٦٤)  
 وقال: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ حَیْرٌ لِلَّذِينَ یَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (الأنعام: ٣٢)  
 وقال: (وَذَرِ الذِّبْنَ ائْخَذُوا بَیْنَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَظَرْتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) (الأنعام: ٧٠)  
 وقال: (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا یَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ) (محمد: ٣٦)  
 وقال: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَیْنَكُمْ وَتَكَاُفُرٌ فِی الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) (الحديد: ٢٠)  
 بین ابن جماعة تقديم اللهو على اللعب في سورتي (الأعراف) و(العنكبوت) وتأخيره عنه في غيرهما بقوله: "إن اللهو عن الشيء تركه وإهماله والإعراض عنه ونسيانه.

واللعب: معروف، وهو فعل مقصود لفاعله.  
 فلما جاء في الأعراف بعد قوله: (وَمَا كُنْتُمْ تَشْتَكِرُونَ) (الأعراف: ٤٨) وهو ذم لهم بالإعراض عن اتباع الحق وإهماله، ولذلك قال بعده: (كَمَا نَسُوا لِقَاءَ یَوْمِهِمْ هَذَا).

وكذلك آية العنكبوت، جاءت بعد قوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (العنكبوت: ٦١) الآيتين، دل بهما على إعراضهم عن الحق واتباعه مع علمهم به. وأما في المواضع الأخر، فجاء في سياق ذم الدنيا والاشتغال عن الله تعالى بلعبها ولهوها وزينتها" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ١٧٥-١٧٦).

حدد ابن جماعة المراد بكل من اللهو واللعب، ثم أبدى المناسبة بين معنى المتقدم منهما مع سياقه، فذكر كلاماً يمكن أن يوحي بتقعيد في هذه المسألة، فيمكن أن يقال: إذا كان السياق فيمن أعرض عن الحق وأهمله ونسيه قُدِّم اللهو. وإذا كان في ذم الدنيا والاشتغال بها عن الله تعالى قُدِّم اللعب، ولم يقل بذلك أحد قبل بدر الدين بن جماعة، فانفرد بذلك.  
 وقد اتضح في كلام ابن جماعة سياق تقديم اللهو على اللعب في (الأعراف)، أما في (العنكبوت) فيحتاج إلى بيان، حيث جاء قبل الآية التي قُدِّم فيها اللهو على اللعب قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (العنكبوت: ٦١-٦٣).

نجد في هذه الآيات أنهم لو سئلوا عن هذه الحقائق لنسبوا إلى خالقها، وعلمهم هذا يقتضي الإيمان بالله وعبادته، ولكن أعرضوا عن اتباع الحق وعبادة الله وتوحيده، لأنهم ناسون لاهون، متشاغلون عنه بلهو الحياة وغرور الدنيا (ينظر: المطعني، ١٩٩٢، ٢٠٠/٢). فالإعراض ظاهر؛ لذا قُدِّم اللهو على اللعب هنا كما قُدِّم في (الأعراف). ولا نجد الإعراض والنسيان في سياق الآيات الأخرى، بل نجد ذم الدنيا والاشتغال بها عن الله تعالى؛ لذا قُدِّم اللعب على اللهو.  
 ونرى تقديم اللعب على اللهو في أربعة مواضع وتأخيره عنه في موضعين، وعلل بعضهم ذلك بأن "اللعب زمن الصبا، واللهو زمن الشباب، وزمن الصبا مقدّم على زمن الشباب، فناسب إعطاء المقدم للأكثر، والمؤخر للأقل" (الأنصاري، ١٩٨٣: ١٦٤، وينظر: الكرمانى: ١٠٧، الزركشي، ١٩٧١، ١٢١/١، الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ١٩٢/١-١٩٣، علي، ٢٠٠٦: ٢٠٠/٣). ولا تخفى قوة توجيه ابن جماعة على توجيه غيره هنا؛ لأنه نابع من سياق الآيات.

### ٣- التقديم والتأخير بين النفع والضر:

قال تعالى: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (الأعراف: ١٨٨)  
 وقال: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (يونس: ٤٩)

استوقف ابن جماعة تقديم النفع على الضر في سورة (الأعراف)، وتأخيره عنه في سورة (يونس)، ووجه هذا بقوله: "إن آية (الأعراف) تقدمها ذكر الساعة، فناسب في حقه تقديم النفع الذي هو ثواب الآخرة، وأخر الضر الذي هو عقابها.

وآية (يونس) تقدمها ذكر استعجال الكفار العذاب في قوله تعالى: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) (يونس: ٤٨) الآية، فناسب تقديم الضر على النفع، ولذلك قال تعالى بعده: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا) (يونس: ٥٠)، وكذلك كلما قدم فيه النفع والضر فلتقدم ما يناسب ذلك التقديم أو تأخيره وذلك ظاهر لمن ينظر فيه " (ابن جماعة، ١٩٩٠، ١٨٨). قرّر ابن جماعة قاعدة لتقديم النفع على الضر وتأخيره عنه في القرآن، وهي أنه: كلما تقدّم النفع على الضر فلتقدم ما يتضمن النفع، وكلما تقدّم الضر على النفع فلتقدم ما يتضمن الضر (ينظر: الكرمانى: ١٣٠، الزركشي، ١٩٧١، ١٢٢/١).

فإذا سبق ذكر ما يدل على النفع قدّم النفع، مثل آية (الأعراف)، حيث سبقها السؤال عن الساعة في قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا) (الأعراف: ١٨٧)، أي: متى قيامها؟، وتكرر في هذه الآية (يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيٌّ عَلَيْهَا)، أي: كأنك عالم بها (ينظر: الطبري، ٢٠٠١: ٦١٣/١٠). ووجه ابن جماعة تقديم النفع على الضر هنا بأنه قد سبق ذكر الآخرة، وذكر النفع أولاً يناسب ثواب الآخرة.

ومن التوجيهات أن سياق الآية يُظهر أنهم شعروا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعلم وقت قيام الساعة، فطلبوا إعلامهم بما يعلم، والعلم بالشيء نفع لصاحبه، فأجابهم أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، وتقدم ذكر النفع في الآية تناسقاً مع ظنهم أنه عنده علمها (ينظر: ابن الزبير، ٢٠٠٦: ٢٢٢/١، علي، ٢٠٠٦: ٩٣٧/٣).

ومنها أن تقديم النفع في آية (الأعراف) يناسب تقديم الهداية على الضلال قبلها في قوله تعالى: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (الأعراف: ١٧٨)، كذلك تقديم الخير على السوء في تمام الآية التي نتكلم عليها: (وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) (الأعراف: ١٨٨). (ينظر: الكرمانى: ١٣٠، الزركشي، ١٩٧١، ١٢٢/١، الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ٢٢٠/١، الأنصاري، ١٩٨٣: ٢١٤، فاضل، ٢، ٢٠٠٧، ٦٠، عز الدين، ٢٠٠٧، ٩٨). وهذا توجيه جيد، وسياق السورة يسانده ويقويه.

وإذا سبق ذكر ما يدل على الضر قدّم الضر، مثل آية (يونس)، ففيها تقديم الضر على النفع؛ لأن الكفار طلبوا تعجيل العذاب استهانة وتكديباً، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأمر ربه: إني لا أملك الضر والنفع لنفسي ولا لغيري، فلا تستعجلوني ذلك فليس بيدي (ينظر: ابن الزبير، ٢٠٠٦: ٢٢٢/١)؛ لذلك قال تعالى بعد هذه الآية: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ).

ومن خلال استقراء سياق آيات سورة (يونس) نجد تقديم الشر على الخير في قوله تعالى: (وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ) (يونس: ١١)، وتقديم الضر على كشف الضر وتكرار لفظ الضر ثلاث مرات في قوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (يونس: ١٢)، كذلك تقديم الضر على النفع في قوله تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ) (يونس: ١٨). (ينظر: الكرمانى: ١٣٠، الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ٢٢٠/١، فاضل، ٢، ٢٠٠٧، ٦٠، عز الدين، ٢٠٠٧، ٩٩، هلال، ٢٠١٥، ١٤٨). وبهذا تبين تناسب تقديم الضر على النفع هنا، وتأخيره عنه في سورة (الأعراف)، فالمقام هنا مقام تقديم الضر، والمقام هناك مقام تقديم النفع والإشعار بأهميته.

#### ٤- التقديم والتأخير بين النذير والبشير:

قال تعالى: (أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ وَبَشِيرٍ) (هود: ٢)

وقال: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) (البقرة: ۱۱۹)

وقال: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (الأحزاب: ۴۵)

وقال: (حم) (۱) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (۲) كِتَابٌ فُضِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) (فصلت: ۱-۴)

أوضح ابن جماعة سر التقديم والتأخير في هذه الآيات أثناء توضيح مسائل سورة (هود) بقوله: "لما قال هنا: (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) ناسب تقديم النذارة على عبادة غير الله تعالى، وفي (الأحزاب) و(البقرة) كان الخطاب له، فناسب كرامته تقديم البشارة، وكذلك في (حم) ناسب ذكر الرحمة ووصف الكتاب تقديم البشارة" (ابن جماعة، ۱۹۹۰، ۲۰۸).

المراد أنه قُدِّم الإنذار على البشارة في سورة (هود)؛ لأنه متصل بعبادة غير الله، كأنه قال لهم: "إني لكم من جهته تعالى نذير أنذركم عذابه إن لم تتركوا ما أنتم عليه من عبادة غيره سبحانه، وبشير أبشركم ثوابه إن آمنتم وتمحضتم في عبادته عز وجل" (الالكوسي، ۱۹۹۴، ۱۹۳/۶-۱۹۴)، وورد هذا المعنى في الآية التي تلي هذه الآية: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) (هود: ۳). والنذارة تناسب عبادة غير الله، والبشارة تناسب عبادة الله، وسبق ذكرهما في قوله تعالى: (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)، وإلى هذا ذهب الالكوسي (ت: ۱۲۷۰هـ) في قوله: "وقد روعي في تقديم الإنذار على التبشير ما روعي في الخطاب من تقديم النفي على الإثبات والتخلي على التحلية لتجاوب الأطراف" (الالكوسي، ۱۹۹۴، ۱۹۴/۶).

وقوله: "في (الأحزاب) و(البقرة) كان الخطاب له" مشعر بأن الخطاب في (هود) ليس له، وهذا صحيح، فالخطاب في آية (هود) للناس، وفيها قدمت البشارة لمقام المخاطب -صلى الله عليه وسلم- كرامة له.

وقدمت البشارة في آية (فصلت) لتقدم ذكر الرحمة ووصف القرآن، والبشارة رحمة، فناسب تقديمها. والمراد في هذه الآية وصف القرآن بالبشارة والإنذار، بخلاف بقية الآيات.

لم أجد قبل بدر الدين بن جماعة من وجه تقديم النذير على البشير وتأخيره عنه، فانفرد به، ونقل أحد المعاصرين توجيهه هذا دون النسبة (ينظر: محمد محمد، ۲۰۰۸، ۶۲۴-۶۲۵)، وذكر أنه قدّم الإنذار على التبشير في سورة (هود)، وقدّم التبشير في سائر المواضع. وليس كذلك، ولعله اغتر بإيراد ابن جماعة هذه الآية وحدها، حيث نجد تقديم الإنذار على البشارة أيضاً في قوله تعالى: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَفِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف: ۱۸۸)، وسبب التقديم هو أن الخطاب للناس، وهم يظنون أن النبي يعلم الغيب، وهذا شرك بالله، قال ابن عاشور (ت: ۱۳۹۳هـ): "وإنما قدم وصف النذير على وصف البشير هنا؛ لأن المقام خطاب المكذبين المشركين، فالنذارة أعلق بهم من البشارة" (ابن عاشور، ۱۹۹۷: ۲۰۹/۹)، وتوجيه ابن عاشور مبني على المخاطب أيضاً، وكذلك وجه تقديم البشارة على النذارة في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)، فقال: "وقدمت البشارة على النذارة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- غلب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته" (ابن عاشور، ۱۹۹۷: ۵۳/۲۲).

وفضلاً عن تلك الآيات الثلاث فقد ورد تقديم البشارة على الإنذار في آيات أخرى، وهي:

قوله تعالى: (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (الإسراء: ۱۰۵)، وقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (الفرقان: ۵۶)، وقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سبأ: ۲۸)، وقوله:

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) (فاطر: ۲۴)، وقوله: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (الفتح: ۸).

نلاحظ في هذه الآيات أن الخطاب للنبي، فقدمت البشارة مراعاة لمقامه -كما سبق-.

كذلك نجد تقديم البشارة لما يصف الله تعالى أنبياءه أو يبين حالهم، وذلك في: قوله: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) (البقرة: ٢١٣)، وقوله: (رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) (النساء: ١٦٥)، وقوله: (وَمَا نُزِيلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) (الأنعام: ٤٨، الكهف: ٥٦). في هذه الآيات وصف الرسل ورفق بالناس، فهم مرسلون لبيان الصراط المستقيم والمنهج السليم؛ لذا يناسب هذا المقام تقديم البشارة. وبهذا يمكن استنباط قاعدة لتقديم البشارة على الإنذار وتأخيرها عنه، وهي: إذا كان الخطاب للنبي، أو وصف الله تعالى أنبياءه، أو بين حالهم، فالبشارة تتقدم مراعاة لمقامهم، وإذا كان الخطاب للناس فالإنذار يتقدم.

#### ٥- التقديم والتأخير بين خلق السموات وخلق الأرض:

قال بدر الدين بن جماعة: "قوله تعالى: (تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى) (طه: ٤) وفي غيره من المواضع: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (الأنعام: ١، ٧٣، الأعراف: ٥٤، التوبة: ٣٦...)، فبدأ بالسموات. جوابه: أما أولاً: فلموافقة رؤوس الآي، ولأنه الواقع لأن خلق الأرض قبل السماء، وأيضاً لما ذكر أن إنزال القرآن تذكرة لمن يخشى وهم سكان الأرض ناسب ذلك البداية بالأرض التي أنزل القرآن تذكرة لأهلها. وأما البداية بالسموات: فلشرفها وعظمتها" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ٢٥٠-٢٥١).

قدّم خلق السموات على الأرض في القرآن كله لعظمتها وشرفها إلا في سورة (طه)، ولهذا سببان، أحدهما صوتي، وهو موافقة رؤوس الآي أو الفواصل التي تنتهي بالألف (لتشقى، يخشى، العلى، استوى، الثرى...)، والآخر دلالي، وهو أن الأرض خلقت قبل السماء -واختلف العلماء في ذلك (ينظر: الألويسي، ١٩٩٤، ٤٦٨/٨)-، أي: روعي الترتيب الحقيقي، وإذا نظرنا في الآيتين قبلها (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى) (طه: ٢-٣) وجدنا أن القرآن أنزل تذكرة لمن يخشى، وهم أهل الأرض، فناسب تقديم الأرض ذكر أهلها. وإلى هذا ذهب الألويسي (ت: ١٢٧٠هـ) وغيره (ينظر: الألويسي، ١٩٩٤، ٤٦٨/٨-٤٦٩، محمد محمد، ٢٠٠٨، ٦٢٥).

ورأى أبو بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) "أن المقصود من السورة تشريف هذا النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- بإعلامه بالرفق بأمتة، والإقبال بقلوبهم حتى يملؤوا الأرض كثرة... ولما قدم الأرض إعلماً بالاعتناء برحمها، بالترفق بسكانها، ليملأها بالإيمان منهم تحقيقاً لمقصود السورة، تشريفاً للمنزل عليه، أتبعها محل الإنزال على سبيل الترقى من بيت العزة إلى ما كنهه في خزنة العرش فقال: (والسموات العلى)" (البقاعي، ١٩٩٥، ٩-٨/٥). ربط البقاعي هذا التقديم بالمقصود من السورة، وهو تشريف النبي والرفق بأمتة، فناسب ذلك تقديم الأرض، ثم أتبعها محل الإنزال على سبيل الترقى من بيت العزة إلى اللوح المحفوظ. ويرى الباحث أن التوجيهين متقاربين؛ إذ يشتركان في أن تقديم الأرض يناسب أهلها المذكور قبل هذه الآية.

#### ٦- التقديم والتأخير بين قارون وفرعون:

قال تعالى: (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) (العنكبوت: ٣٩)

وقال: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (غافر: ٢٣-٢٤) بين ابن جماعة سر التقديم والتأخير في الآيتين أثناء توضيح مسائل سورة (العنكبوت) بقوله: "قدم قارون هنا، وأخره في سورة المؤمن-أي سورة غافر-".

جوابه: لما قال: وكانوا مستبصرين، وكان قارون أشدهم بصيرة لحفظه التوراة، وقرابة موسى، ومعرفته، مناسب تقديم ذكره. وفي المؤمن: سياق الرسالة وكانت إلى قارون ومخالفته وعداوته بعد فرعون وهلاكه" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ٢٩٠).

لم أجد أحداً سبق ابن جماعة بتوجيه التقديم والتأخير في الآيتين، فانفرد به، وبعد النظر في سياقهما، وجد في الموضوع الأول أن نهاية الآية التي سبقت هذه الآية (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) (العنكبوت: ٣٨)، وكان قارون أشدهم بصيرة بالتوراة، وأقربهم من موسى، و"كان ابن عم موسى ومتزوجاً بأخته" (الفيروزآبادي، ١٩٧٣، ٧٣/٦)؛ لذا قُدّم قارون عليهما، ووجد في الموضوع الثاني أن سياق الآية الرسالة، وكانت إلى قارون وعداوته بعد فرعون وهلاكه؛ لذا أُخّر قارون عنهما. وذكر أبو السعود (ت: ٩٨٢هـ) عند تفسيره آية (العنكبوت) أنه "قيل: تقديم قارون لشرف نسبه" (أبو السعود، ٤٠/٧)، ويظهر ضعف هذا التوجيه عند مقارنة هذه الآية بآية (غافر)، ولم يذكر أبو السعود شيئاً عن سر تأخيره.

كذلك ذكر الألوسي (١٢٧٠هـ) في تفسيره آية (العنكبوت) أكثر من توجيه في قوله: "وتقديم قارون لأن المقصود تسليية النبي -صلى الله تعالى عليه وسلم- فيما لقي من قومه لحسدهم له، وقارون كان من قوم موسى -عليه السلام- وقد لقي منه ما لقي، أو لأن حاله أوفق بحال عاد وثمود فإنه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ولم يفده الاستبصار شيئاً، كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئاً... أو لأنه أشرف من فرعون وهامان لإيمانه في الظاهر وعلمه بالتوراة وكونه ذا قرابة من موسى عليه السلام، ويكون في تقديمه لذلك في مقام الغضب إشارة إلى أن نحو هذا الشرف لا يفيد شيئاً" (الألوسي، ١٩٩٤، ١٠/٣٦٢-٣٦٣). فقد بين التوجيهات السابقة وزاد عليها، لكنه لم يذكر شيئاً عن دلالة تأخيره في آية (غافر).

#### • ثانيًا/ التوجيه الدلالي للتقديم والتأخير في الأفعال المتعاطفة:

اجتهد ابن جماعة في إيجاد التناسب الدلالي للآيات التي تشابهت بسبب التقديم والتأخير بين أفعالها المتعاطفة، ومن أمثلة ذلك عنده:

#### ١- التقديم والتأخير بين الشفاعة والعدل:

قال تعالى: (وَآتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) (البقرة: ٤٨)

وقال: (وَآتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) (البقرة: ١٢٣) جاء التشابه اللفظي في الآيتين بتقديم بعض الأجزاء في إحداها وتأخيره في الأخرى، حيث قُدّم قبول الشفاعة على أخذ العدل -وهو الفدية (ينظر: الفراء، ٧٥/١، الطبري، ٢٠٠١: ١/٦٣٧)- وأخّر نفع الشفاعة على قبول العدل في الآية الثانية، و"قد وُضعت (الشفاعة) في إطار القبول والنفع في الآيتين، وُضع (العدل) في إطار الأخذ والقبول فيهما" (عز الدين، ٢٠٠٧، ١٨٢).

قال ابن جماعة: "ما فائدة التقديم والتأخير والتعبير بقبول الشفاعة تارة، والنفع أخرى؟ جوابه:

أن الضمير في منها راجع في الأولى إلى (النفوس) الأولى، وفي الثانية راجع إلى (النفوس) الثانية. كأنه بيّن في الآية الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا تتقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل. ولأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها. ويبين في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها، وقد بذل العدل للحاجة إلى الشفاعة عند رده.

فلذلك كله قال في الأولى: لا يقبل منها شفاعاة، وفي الثانية: ولا تنفعها شفاعاة؛ لأن الشفاعاة إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ٩٤-٩٥).

طرح ابن جماعة سؤالين، وركّز على بيان مرجع الضمير في الآيتين لإيضاح فائدة التعبير بقبول الشفاعاة في الآية الأولى، والنفع في الثانية، ولبيان سر التقديم والتأخير في الآيتين، حيث قدّمت (الشفاعة) على (العدل)؛ لأن النفس في الآية الأولى هي الشافعة، والشافع يقدمها عليه دائماً، وفي الثانية هي المشفوع لها إن كان هناك شافع لها. تبع الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) (ينظر: الزركشي، ١٩٧١، ١٢٤/١-١٢٥) والسيوطي (ت: ٩١١هـ) (ينظر: السيوطي، ١٩٨٨، ٦٧/١) ابن جماعة في توجيه الآيتين، وهذا التوجيه مع دقته لا يبيّن سبب تخصيص الآية الأولى بهذا المعنى وكذا الثانية بمعناها، واختلفت توجيهات العلماء في الآيتين (ينظر: الإسكافي، ٢٠٠١: ٢٢٦-٢٢٧، الكرمانلي، ٧١-٧٢، الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ١٤٢/١، البقاعي، ١٩٩٥، ١٢٩/١، ٢٣٧، الأنصاري، ١٩٨٣: ٢٤، ابن عاشور، ١٩٩٧: ٦٩٨/١، المطعني، ١٩٩٢، ١٨٩/٢-١٩٤)، لكنني ما وجدت بيان سبب تخصيص إلا عند ابن الزبير الغرناطي (ت: ٧٠٨هـ)، فذكر أنه قد سبق الآية الأولى قوله تعالى: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) (البقرة: ٤٤)، والمأمور بالبر أو المدعوّ قد يهديه الله، فيأخذ به، فيسلم من العصيان، وتكون في ذلك نجاته يوم القيامة، ولتوهم هؤلاء الأمرين - وكانوا يبطنون خلاف ما يظهر، ولم تكن دعوتهم خاصة لله - إمكان شفاعاة من أمرهم بالبر واهتدوا على أيديهم وطمعهم في ذلك كان أكد شيء نفي الشفاعاة لهم؛ لإمكان توهمها. أما الآية الثانية فلم يسبقها ما يستدعي هذا، فقدم فيها ذكر الفدية التي هي أولى في التخلص من العذاب على ما عهد في الدنيا لو أمكنت، والفدية - وتكون بالمال عادة - مقدمة على نفع الشفاعاة (ينظر: ابن الزبير، ٢٠٠٦: ٣٣/١، محمد فاضل، ٢٠١٦: ٢٠٧-٢٠٨).

## ٢- التقديم والتأخير بين الأمر بالدخول والأمر بالقول:

قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة: ٥٨) وقال: (وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) (الأعراف: ١٦١) هناك اختلافات في نظم الآيتين، والذي يهمنا هنا هو تقديم (وادخلوا الباب سجداً) على (وقولوا حطة) في سورة (البقرة)، وتأخيره عنه في سورة (الأعراف). والمراد بـ(حطة) أنها مصدر بمعنى حطّ عنا ذنوبنا (ينظر: أبو عبدة، ١٩٦١، ٤١/١).

وقد وجّه ابن جماعة -وتبعه السيوطي (٩١١هـ) (ينظر: السيوطي، ١٩٨٨، ٦٨/١) - سبب التقديم والتأخير الوارد في الآيتين، وذكر أن سياق سورة (البقرة) سياق ذكر النعم على بني إسرائيل، قال تعالى: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) (البقرة: ٤٧)، فناسب تقديم (وادخلوا الباب سجداً)، والسياق في سورة (الأعراف) سياق توبيخهم، وفيها قولهم: (يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) (الأعراف: ١٣٨)، وفيها قوله تعالى عنهم: (وَإِذْ أَخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) (الأعراف: ١٤٨)، فناسب تقديم ذكر مغفرة الخطايا (ينظر: ابن جماعة، ١٩٩٠، ٩٧). ف"ظهور كمال النعمة في (البقرة) اقتضى تقديم الأمر بالسجود؛ لأن السجود مظهر عظيم من مظاهر شكر النعم. ثم روعي جانب الخطيئة في (الأعراف) فقدم ما يناسبه، وهو القول بالحطة لزوال ما اقتضى التقديم في آية (البقرة)" (المطعني، ١٩٩٢، ١٥٢/٢).

انفرد ابن جماعة بهذا التوجيه، ولم أجد قبله من بين أثر السياق في التقديم والتأخير الوارد في الآيتين، وقد ذكر العلماء قبله توجيهات كثيرة ومختلفة لكنها خالية من بيان سياق السورتين، ومن بيان سبب تخصيص الآيتين بنظميهما.

رأى الخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ) أنه لا غرابة في التقديم والتأخير في الآيتين؛ لأن القرآن حكى المعنى دون اللفظ (ينظر: الإسكافي، ٢٠٠١: ٢٣٨/١). وهذا توجيه غريب، ففي القرآن ما حكى معناه، ووجهه الإسكافي (ينظر: الإسكافي، ٢٠٠١: ٣٨٤/١، ٨٨١/٣). فلا يمكن ترك البحث عن الأسرار البلاغية والتناسب المعنوي بحجة أن اللغة التي تكلموا بها أو خوطبوا بها غير العربية.

وبيّن الكرمانى (ت: نحو ٥٠٥هـ) -وتبعه آخرون (ينظر: الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ١٤٣/١، الأنصاري، ١٩٨٣: ٢٦) - أن (ادخلوا) في (البقرة) وقع بياناً لكيفية الدخول الذي ذكر قبله، بخلاف (الأعراف) (ينظر: الكرمانى: ٧٣). وقال الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) -وتبعه آخرون (ينظر: أبو السعود، ٢٨٣/٣، ابن عاشور، ١٩٩٧: ١٤٥/٩) - عند توجيه اختلاف نظم الآيتين: "لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض... وسواء قَدِمَا الحطة على دخول الباب أو أخروها، فهم جامعون في الإيجاد بينهم" (الزمخشري: ١٦٠/٢)، أي: المراد هو الجمع بين الأمرين من غير اعتبار الترتيب بينهما، فالواو لمطلق الجمع، ويُفهم من كلامه أن الاختلاف لمجرد التفنن والامتداد، وهذا لا يكفي لتوجيه الآيتين. ورأى ابن الزبير الغرناطي (ت: ٧٠٨هـ) أن المراد وادخلوا الباب سجداً قائلين في سجودكم حطة، فلو ورد في السورتين على حد سواء لأوهم أنهم أمروا بالسجود والقول منفصلين، على احتمال دلالة الواو على عدم الترتيب، فقدم وأخر في السورتين ليتعين أن المراد بهذا القول أن يكون في حال السجود لا قبله ولا بعده، وعلى حسب ترتيب المصحف فقد قَدِمَ في (البقرة) الأمر بالسجود لأن ابتداء السجود يتقدم ابتداء الدعاء (ينظر: ابن الزبير، ٢٠٠٦: ٣٧/١). وهكذا لم نر أي إشارة إلى سياق السورتين في التوجيهات السابقة.

### ٣- التقديم والتأخير بين (يعذب ويعذب):

قال تعالى: (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة: ٢٨٤) وقال: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (المائدة: ٤٠)

قَدِمَ الفعل (يعذب) على (يعذب) في الآية الأولى، ونجد عكس ذلك تماماً في الآية الثانية، ووجه ابن جماعة هذا الاختلاف النظمي بقوله: "إن آية (البقرة) وغيرها جاءت ترغيباً في المسارعة إلى طلب المغفرة، وإشارة إلى سعة مغفرته ورحمته. وآية (المائدة) جاءت عقب ذكر السارق والسارقة، فناسب ذكر العذاب؛ لأنه لهم في الدنيا والآخرة" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ١٢٣).

المراد أن الاختلاف متعلق بسياق الآيات، حيث وردت آية (المائدة) بعد قوله تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة: ٣٨-٣٩)، فذكر تعذيبهم جزاء على فعلهم السيئ، ثم ذكرت المغفرة لهم إن تابوا، فناسب تقديم العذاب على المغفرة في الآية التي وردت بعد هاتين الآيتين، وناسب بناؤها على ما بُنيتا عليه (ينظر: ابن الزبير، ٢٠٠٦: ٧٤/١، الألويسي، ١٩٩٤، ٣٠٤/٣)، قال الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ): "فإن قلت: لم قَدِمَ التعذيب على المغفرة؟ قلت: لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة" (الزمخشري: ٦٦٥/١)، أي: تقدم السرقة وعذابها على التوبة.

وجاء قبل ذكر السارق والسارقة خبر المحاربين في قوله تعالى: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ) (المائدة: ٣٣-٣٤)، نجد أيضاً تقديم أمر تعذيبهم على التوبة عليهم والمغفرة لهم (ينظر: ابن الزبير، ٢٠٠٦: ٧٤/١).

أما آية (البقرة) وغيرها (آل عمران: ١٢٩، المائدة: ١٨، الفتح: ١٤) فلم يرد قبلها مثل ما ورد في سورة (المائدة)، فجاءت ترغيباً في المسارعة إلى التوبة وطلب المغفرة، وإشارة إلى سعة مغفرت الله ورحمته.

وذكر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) قاعدة جليظة في قوله: "من أساليب القرآن حيث ذكر الرحمة والعذاب أن يبدأ بذكر الرحمة" (الزركشي، ١٩٧١، ٦٣/٤)، وعلى هذا إذا ذكر في القرآن المغفرة والعذاب قدمت المغفرة، كقوله تعالى: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) (الرعد: ٦)، وقوله: (تُبَيِّئُ عِبَادِي أَنَّي أَنَا الْعَفُوُّ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) (الحجر: ٤٩-٥٠)، وقوله: (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) (فصلت: ٤٣)، وقوله: (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ) (غافر: ٣)، وكذلك جاء تقديم (يغفر لمن يشاء) على (يعذب من يشاء) على هذا الأصل الذي يدل على أن رحمة الله ومغفرته قبل غضبه وعقابه (ينظر: أبو السعود، ٢٧٣/١).

وورد عند الكرمانى (ت: نحو ٥٠٥هـ) -ومن تبعه (ينظر: الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ١٥٥/١، الأنصاري، ١٩٨٣: ٧٤-٧٣) - مثل هذا التوجيه، فقال: "(يغفر) مقدم في هذه السورة وغيرها إلا في (المائدة)... لأنها نزلت في حق السارق والسارقة، وعذابهما يقع في الدنيا، فقدّم لفظ العذاب. وفي غيرها قدم لفظ المغفرة رحمة منه تعالى وترغيباً للعباد في المسارعة إلى موجبات المغفرة" (الكرمانى: ٨٧-٨٨).

## المبحث الثاني

### التوجيه الدلالي للتقديم والتأخير في الجار والمجرور

الجار والمجرور باب واسع في العربية، وما زال الدارسون يدرسونه مبينين أسرارته ودلالاته لاسيما في كتاب الله، وممن غني به بدر الدين بن جماعة؛ لذا خصصنا هذا المبحث لإيضاح ما ورد عنده في توجيه تقديم الجار والمجرور في آية وتأخيره في أخرى.

### أولاً/ التقديم والتأخير بين جار ومجرور وجرار ومجرور آخرين:

وذلك في عدة مواضع:

١- قال تعالى: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ) (البقرة: ١٧٣)

وقال: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) (المائدة: ٣)

وقال: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ

رَجْسٌ أَوْ فَسَقٌ أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) (الأنعام: ١٤٥)

وقال: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) (النحل: ١١٥)

معنى (وما أهل به لغير الله): ما ذكر عليه غير اسم الله عند الذبح، وهو ما كان يذبح لأجل الأصنام (ينظر: الفراء،

١٠٢/١، أبو عبيدة، ١٩٦١، ١٤٩/١)، والمشركون "كانوا إذا أرادوا ذبح ما قربوه لآلهتهم، سمو اسم آلهتهم التي قربوا ذلك لها،

وجهرها بذلك أصواتهم، فجرى ذلك من أمرهم على ذلك، حتى قيل لكل ذابح، سمى أو لم يسم، جهر بالتسمية أو لم

يجهر: (مهل) (الطبري، ٢٠٠١: ٥٥/٣).

نجد في الآية الأولى تقديم (به) على (لغير الله)، وتأخيرها في الآيات الأخرى، ووجه بدرالدين بن جماعة هذا التقديم والتأخير بقوله: "إن آية (البقرة) وردت في سياق المأكول وحله وحرمته، فكان تقديم ضميره، وتعلق الفعل به أهم. وآية (المائدة) وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره، والأمر بتقواه، وكذلك آية (النحل) بعد قوله تعالى: (وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ) (النحل: ١١٤)، فكان تقديم اسمه أهم.

وأيضاً: فآية (النحل) و(الأنعام) نزلتا بمكة، فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائهم أهم لما يجب من توحيده، وإفراده بالتسمية على الذبائح.

وآية (البقرة) نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل وما يحرم، فقدم الأهم فيه " (ابن جماعة، ١٩٩٠، ١١٠-١١١). وجه ابن جماعة التقديم والتأخير في هذه الآيات توجيهين: أحدهما متعلق بسياق الآيات، والثاني متعلق بآماكن النزول.

أما التوجيه الأول فالمراد به أن آية (البقرة) وردت في مقام الرزق والطعام المحلل والمحرم وأكل الطيبات، وتقدم قبلها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا) (البقرة: ١٦٨)، وقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (البقرة: ١٧٢)، فقدم (به)، والضمير يعود على ما يذبح وهو طعام، مراعاةً للسياق. وممن رأى هذا التوجيه في هذه الآية الدكتور فاضل السامرائي (ينظر: فاضل، ١، ٢٠٠٧، ٩٧/٣)، وغيره (ينظر: هلال، ٢٠١٥، ٨٤).

وآية (المائدة) جاءت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره، والأمر بتقواه، والسياق مختلف عما في (البقرة)؛ لذا كان تقديم اسمه تعالى أهم وأنسب.

وقول ابن جماعة: "كذلك آية (النحل) بعد قوله تعالى: (وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ)"، لا يخلو من الضعف؛ لأن آية (البقرة) جاءت أيضاً بعد قوله تعالى: (وَاشْكُرُوا لِلَّهِ)، والفرق بين سياق الآيتين أن سياق آية (النحل) في التحليل والتحريم ورفض أي جهة أخرى تحلل وتحرم من غير الله؛ حيث ورد بعدها قوله تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) (النحل: ١١٦)، وقوله: (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ) (النحل: ١١٨)، فإذا حلل العبد وحرم بمشيئته فهذا من الشرك؛ لأن التحليل والتحريم من الله وحده؛ لذا كان تقديم بطلان الشرك وتحريم ذكر غير الله أنسب (ينظر: هلال، ٢٠١٥، ٨٥، محمد فاضل، ٢٠١٦: ١٩٦).

والأضعف مما سبق أنه لم يذكر شيئاً عن آية (الأنعام)، ونرى أن سياقها مثل سياق آية (النحل)، فذكر في سياقها التحليل والتحريم ورفض أي جهة أخرى تقوم بذلك، حيث ورد قبلها قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا) (الأنعام: ١٣٦)، وقوله: (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حَرَّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ... (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ... (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ... (الأنعام: ١٣٨-١٤٠)، وجاء بعدها قوله تعالى: (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) (الأنعام: ١٤٦)، وقوله: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ) (الأنعام: ١٤٨)، وقوله: (قُلْ هَلْمْ شَهِدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا... (١٥٠) قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ) (الأنعام: ١٥٠-١٥١).

تبين مما سبق أن السياق في آية (الأنعام) في الذين يحللون ويحرمون مفتريين على الله، أو يحكمون بالتحريم والتحليل حسب أهوائهم؛ لذا قدم إبطال هذا الشرك؛ لأنه هو مدار الاهتمام والكلام (ينظر: فاضل، ١، ٢٠٠٧، ٩٦/٣).

ويبين الدكتور فاضل السامرائي أن "الكلام في (المائدة) أيضاً على التحليل والتحريم، ومن بيده ذلك ورفض آية جهة تحلل وتحرم من غير الله، فإن الله هو يحكم ما يريد، قال: (أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُثَلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَخُكِّمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ... (٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخُنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ... (٣) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ) (المائدة: ٤-١).

فهو يجعل التحليل والتحريم بيده ويرفض آية جهة أخرى تقوم بذلك؛ لأن ذلك من الشرك الذي أبطله الإسلام، ولذا قدمه في البطلان فقال: (وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ).

ثم إنه جاء في المواطنين بذكر اسم الله على الذبائح، فذكر في آية (الأنعام) أن المشركين لا يذكرون اسم الله على بعض ذبائحهم تعمدًا، فقال: (وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا) (الأنعام: ١٣٨)، وأمر في آية (المائدة) بذكر اسم الله، فقال: (وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ)، فناسب ذلك تقديم بطلان ذكر غير الله" (فاضل، ٢، ٢٠٠٧، ٧٣).

وبهذا نصل إلى أن السياق في آية (البقرة) الرزق والطعام المحلل والمحرم وأكل الطيبات، وفي الآيات الثلاث الأخر التحليل والتحريم ورفض أي جهة أخرى تحلل وتحرم من غير الله، وإبطال الشرك.

وأما توجيهه الثاني فالمراد به أن التقديم والتأخير مرتبط بأماكن النزول، فذكر ابن جماعة أن آية (النحل) و(الأنعام) نزلتا بمكة، والخطاب لأهل مكة، وهم عبدة الأصنام، فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائحهم والإسراع إلى ترك الشرك أهم. وآية (البقرة) نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل وما يحرم، فقدم الأهم فيه.

أما آية (المائدة) فلم يذكرها ابن جماعة، وهذه السورة نزلت بالمدينة، باستثناء هذه الآية التي فيها (وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)، فإنها نزلت بمكة في حجة الوداع (ينظر: الطبري، ٢٠٠١: ٨/٨)، فهي مكية على قول من يرى "أن المكّي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة" (الزركشي، ١٩٧١، ١٨٧/١)، ويمكن توجيهها مثل آيتي (النحل) و(الأنعام).

فالخطاب مختلف لاختلاف المخاطبين، و"كأن القرآن يقول لأهل مكة: لا تظنوا أن الإسلام قد سكت عما أنكر عليكم وقد رحل رسوله ورجاله عن دياركم وغابوا عنكم طيلة عشر سنين. فإن الإسلام باق على دعوته: الحلال حلال، والحرام حرام؛ لأنه مبادئ وأسس ثابتة لا تقبل الإبطال أو التبديل... مع أهل مكة يهدف القرآن إلى نفي الشرك أولاً. ثم تحريم ما حرم ثانياً. ومع أهل المدينة يهدف إلى تحريم ما يحرم أولاً. ثم الثبات على ما هم عليه من الإيمان ثانياً" (المطعني، ١٩٩٢، ١٦٣/٢).

وأجمع بعض العلماء على توجيه هذه المسألة بأنه "قدم (به) في هذه السورة -أي: البقرة- وأخرها في المائدة والأنعام والنحل؛ لأن تقديم (الباء) الأصل، فإنها تجري مجرى الهمزة والتشديد في التعدي فكانت كحرف من الفعل فكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ليعلم ما يقتضيه اللفظ ثم قدم فيما سواها ما هو المستنكر وهو الذبح لغير الله وتقديم ما هو الغرض أولى" (الكرمانى: ٨١، وينظر: الإسكافي، ٢٠٠١: ٣١٧/١، الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ١٥٠/١-١٥١، النيسابوري، ١٩٩٦: ٤٧١/١، الأنصاري، ١٩٨٣: ٥٠، الألوسي، ١٩٩٤: ٤٤٠/١). أي: التقديم في آية (البقرة) على الأصل، وفي المواضع الثلاثة جاء لإظهار المستنكر، والتنبيه إلى أنه سبب التحريم (ينظر: علي، ٢٠٠٦: ٨١٩/٣)، ولا شك أن ما قدمناه أدق وأنسب.

٢- قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدْنَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِيرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (البقرة: ٢٦٤)

وقال: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْبُعِيدُ) (إبراهيم: ١٨)

نجد تقديم (على شيء) على (مما كسبوا) في الآية الأولى، ثم تقديم (مما كسبوا) على (على شيء) في الآية الثانية. وذكر ابن جماعة دلالة هذا الاختلاف في نظم الآيتين بقوله: "إن المثل هنا -أي: في آية (البقرة)- للعامل، فكان تقديم نفي قدرته وصلتها أنسب، لأن (على) من صلة القدرة.

وآية إبراهيم -عليه السلام- المثل للعمل، لقوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ) تقديره: مثل أعمال الذين كفروا، فكان تقديم (مما) تقديم نفي ما كسبوا أنسب؛ لأنه صلة (شيء)، وهو الكسب" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ١٢٠).

أي: في آية (البقرة) الكلام عن العامل، فقدّم فيها ما يناسبه، وهو تقديم نفي قدرته وما يتعلق بها، فإن (على شيء) جار ومجرور متعلقان بـ(يقدر)، و(مما كسبوا) جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لشيء (ينظر: محيي الدين، ١٩٩٤، ٤٠٩/١)، وفي آية (إبراهيم) الكلام عن العمل، فقدّم فيها ما يناسبه، وهو تقديم (مما كسبوا)؛ لأن الكسب هو المقصود بالذكر، وقوله: لأنه صلة (شيء)، هذا في الأصل، وهنا تقدم عليه، فهو حال (ينظر: محيي الدين، ١٩٩٤، ١٧١/٥). وتبع بعض من وجه التقديم والتأخير في الآيتين ابن جماعة، ولم يشيروا إليه (ينظر: الفيروزآبادي، ١٩٩٦، ٢٧٠/١، الأنصاري، ١٩٨٣، ٢٩٣، محمد محمد، ٢٠٠٨، ٦٢٢). ولم يرد عن الذين قبله توجيهه للآيتين إلا توجيهه أبي القاسم الكرمانى (ت: نحو ٥٠٥هـ) الموجز، فقال: "لأن الأصل ما في (البقرة)" (الكرمانى: ١٥٤)، هذا التوجيه معتمد على ترتيب سور القرآن، وليس للسياق والدلالة أثر فيه؛ لذا أراه غير دقيق.

وذكر الدكتور فاضل السامرائي أن آية (البقرة) وردت في سياق الإنفاق، والمُنْفِقُ مُعْطٍ وليس كاسباً؛ لذلك قدّم الشيء، وأخر الكسب، والآية الثانية وردت في سياق العمل، والعامل كاسب؛ لذلك قدّم الكسب (ينظر: فاضل، ٢٠٠٧، ٧١). وتبعه آخرون (ينظر: عز الدين، ٢٠٠٧، ١٥٢-١٥٣، هلال، ٢٠١٥، ١٠١). وهذا التوجيه وتوجيه ابن جماعة متناسبان مع سياق الآيتين.

٣- قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا) (النساء: ١٣٥) وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ) (المائدة: ٨)

نظر بدرالدين بن جماعة في سياق الآيتين ورأى: "أن الآية هنا -أي: في سورة (النساء)- تقدمها نشوز الرجال وإعراضهم عن النساء والصلح على مال، وإصلاح حال الزوجين، والإحسان إليهن، وقوله تعالى: (وَلَوْ تَشْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ) (النساء: ١٢٩)، وقوله تعالى: (وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ) (النساء: ١٢٧)، وشبه ذلك، فناسب تقديم القسط وهو العدل، أي: كونوا قوامين بالعدل بين الأزواج وغيرهن، واشهدوا لله لا لمرعاة نفس أو قرابة. وآية (المائدة) جاءت بعد أحكام تتعلق بالدين، والوفاء بالعهد والمواثيق لقوله تعالى في أول السورة: (أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) (المائدة: ١) إلى آخره، وقوله تعالى قبل هذه الآية: (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ) (المائدة: ٧) الآية.

ولما تضمنته الآيات قبلها من أمر ونهي، فناسب تقديم (لله)، أي: كونوا قوامين بما أمرتم أو نهيتهم لله، وإذا شهدتم فاشهدوا بالعدل لا بالهوى" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ١٤٢-١٤٣).

تبع ابن جماعة - وغيره (ينظر: البقاعي، ١٩٩٥، ٣٣٣/٢، ٤٠٦، ابن عاشور، ١٩٩٧: ١٣٥/٦) - في توجيه التقديم والتأخير في هاتين الآيتين ابن الزبير الغرناطي (ت: ٧٠٨هـ)، قال ابن الزبير: "أن الآيات المتصلة بآية سورة (النساء) مبنية على الأمر بالعدل والقسط، قال تعالى: (مَنْ يَعْمَلْ سَوْءًا يُجْزَ بِهِ) (النساء: ١٢٣) الآية، وقال بعد: (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ) (النساء: ١٢٧)، ثم قال: (وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ)، وتوالت الآي بعد على هذا المعنى، فقدّم قوله (بالقسط) ليناسب ما ذكر.

وأما آية (المائدة) فثبت قبلها الأمر بالطهارة، ثم تذكيره سبحانه بتذكر نعمه والوقوف مع ما عهد به إلى عباده والأمر بتقواه، فناسبه قوله: (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)، ثم أتبع بما بنى على ذلك من الشهادة بالقسط" (ابن الزبير، ٢٠٠٦: ١١١/١). ومما سبق تبين أن سورة (النساء) مبنية على العدل؛ لذا قدّم فيها (بالقسط)، وسورة (المائدة) مبنية على الوفاء بالعهد وتقوى الله؛ لذا قدّم فيها (لله). وهذا التوجيه مبني على السياق والمناسبة، و"حصل من مجموع الآيتين: وجوب القيام بالعدل، والشهادة به، ووجوب القيام لله، والشهادة له" (ابن عاشور، ١٩٩٧: ١٣٥/٦).

ورأى قبلهما الخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ) - وتبعه غيره (ينظر: الكرمانى: ٩٨، الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ١٧٦/١، الأنصاري، ١٩٨٣: ١٢٦) - غير ذلك، فذكر أن الخطاب في آية (النساء) لعموم الناس، فعلى كل من عنده شهادة أن يقوم بالحق فيها، والخطاب في آية (المائدة) مختص بالولاة بدليل (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومَ عَلَىٰ أَلا تَعْدِلُوا اغْدُلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)، وعلى هذا فالمعنى: كونوا أيها الولاة قوامين في أحكامكم لله لا لنفع (ينظر: الإسكافي، ٢٠٠١: ٤١٩/١-٤٢٣).

وأبدى أبو حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) توجيهه للتقديم والتأخير في الآيتين، فقال: "وهذا من التوسع في الكلام والتفنن في الفصاحة... إلا أن التي في (النساء) جاءت في معرض الاعتراف على نفسه وعلى الوالدين والأقربين، فبدئ فيها بالقسط الذي هو العدل والسواء من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة، وهنا -أي: في المائدة- جاءت في معرض ترك العداوات والإحس، فبدئ فيها بالقيام لله تعالى أولاً؛ لأنه أردع للمؤمنين، ثم أردف بالشهادة بالعدل، فالتى في معرض المحبة والمحاباة بدئ فيه بما هو أكد وهو القسط، وفي معرض العداوة والشنان بدئ فيها بالقيام لله، فناسب كل معرض بما جاء به إليه. وأيضاً فتقدم هناك حديث النشوز والإعراض وقوله: (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ)... فناسب ذكر تقديم القسط، وهنا تأخر ذكر العداوة فناسب أن يجاورها ذكر القسط" (أبو حيان، ٢٠٠٠، ١٩٦/٤). أرى أن توجيه أبي حيان قريب من توجيه ابن الزبير إلا أنه أضاف مسألة المحبة والعداوة، فأية (النساء) فيها ما يقطع المحاباة والمحبة للنفس أو الوالدين أو الأقربين، فبدئ بما هو أكد، وهو القسط، وأية (المائدة) فيها ما يقطع العداوة، فقدّم ما هو أكد، وهو القيام لله تعالى.

وفضلاً عن مكانة هذه التوجيهات، فإني أختار توجيه ابن الزبير ومن تبعه؛ لما فيه من دلائل بيّنة ومقنعة نابعة من سياق الآيات، أما توجيه الإسكافي ومن تبعه فغير مقنع الباحث؛ إذ ليس في آية (المائدة) ما يخصها بالولاة، فبدأت الآيتان ب (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، وهذا النداء للمؤمنين كلهم، لا لولااتهم فقط، وما استدلوا به للتخصيص، وهو قوله تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومَ عَلَىٰ أَلا تَعْدِلُوا اغْدُلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)، يجوز أن يشترك فيه عموم المسلمين.

٤- قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (الأنفال: ٧٢)

وقال: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَغْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ) (التوبة: ٢٠) في الآيتين خلاف في تقديم (بأموالهم وأنفسهم) على (في سبيل الله) وتأخير عنه، وقد بين ابن جماعة دلالة هذا بقوله: "إن آية (الأنفال) تقدمها ذكر الغنائم واختيارهم أخذ الفداء من الأسرى ببدن، فناسب تقديم إنفاق المال في سبيل

الله تعالى. وآية (براءة) تقدمها ذكر افتخارهم بعمارة المسجد الحرام على المجاهدين، فناسب تقديم الجهاد في سبيل الله على ذكر الأموال، وأنه أهم" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ١٩٢-١٩٣).

اتبع ابن جماعة وغيره (ينظر: الكرمانى: ١٣٢-١٣٣، ابن الزبير، ٢٠٠٦: ٢٢٥/١، الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ٢٢٥/١، الأنصاري، ١٩٨٣: ٢٢٣-٢٢٤، فاضل، ٢، ٢٠٠٧، ٦٧-٦٨) في هذا التوجيه الخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ)، وعندهم العناية بالمتقدم والتناسب المعنوي هما السبب وراء اختلاف النظم في الآيتين.

جاء قبل آية (الأنفال) قوله تعالى لأصحاب النبي لما أسروا المشركين، ولم يقتلوهم طمعاً في الفداء: (ثَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْأَخْرَجَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال: ٦٧)، ثم قال سبحانه: (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (الأنفال: ٦٨)، أي: فيما أخذتم من هؤلاء الأسرى من الفداء، ولما غفر لهم ما كان منهم قال: (فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) (الأنفال: ٦٩)، أي: استمتعوا بما نلتهم من أموال المشركين، وبما أخذتم من فدائهم، ثم مدح الله تعالى في الآية التي نحن بصدها من أنفق أمواله في سبيل الله، لا من يجاهد طلباً للنفع العاجل، فقدم (بأموالهم وأنفسهم) على (في سبيل الله) ليعلموا أن ذلك يجب أن يكون أهم لهم، وأولى بتقديمه عندهم صرفاً لهم عما حرصوا عليه من فائدة الفداء.

أما آية (التوبة أو براءة) فقد جاء قبلها ذكر الجهاد والقتال في قوله تعالى: (فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ) (التوبة: ١٢)، وقوله: (أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (التوبة: ١٣)، وقوله: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) (التوبة: ١٤)، وقوله: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) (التوبة: ١٦)، ثم قوله سبحانه في إبطال ما أتى به المشركون من عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج مع بقائهم على الكفر: (أَجْعَلْنَاهُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ) (التوبة: ١٩). فكان المناسب لسياق الآية التي نحن بصدها بعد الإيمان بالله ذكر الجهاد في سبيل الله، ومدح من قام به؛ لذا قدم (في سبيل الله) على (بأموالهم وأنفسهم)، وجعل أهم من غيره (ينظر: الإسكافي، ٢٠٠١: ٢٠١/٢-٦٩٨، عز الدين، ٢٠٠٧، ١٥٧-١٥٩).

٥- قال تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء: ٨٩)

وقال: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (الكهف: ٥٤)

نجد تقديم (للناس) على (في هذا القرآن) في سورة (الإسراء) وتأخيره عنه في سورة (الكهف)، ووجه ابن جماعة هذا الاختلاف في التركيب بأن آية (الإسراء) "وردت بعد أفعال وأقوال من قوم مخصوصين: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ) (الإسراء: ٧٣) (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ) (الإسراء: ٧٦) (قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ) (الإسراء: ٨٨) الآية، فناسب تقديم ذكر الناس وقيام الحجة عليهم بعجزهم عن الإتيان بمثله، ولذلك جاء بعده: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ) (الإسراء: ٩٠).

وأما آية الكهف فوردت بعد ذكر إبليس وعداوته وذم اتخاذه وذريته أولياء، فناسب تقديم ذكر القرآن الدال على عداوته ولعنه" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ٢٣٢-٢٣٣).

أي: إن ذكر الناس أهم في (الإسراء)؛ لأن مدار سياق السورة عليهم، والكلام مسوق لتحذيرهم وتنبئهم وقيام الحجة عليهم. وتقديم القرآن يناسب السياق الذي وردت فيه آية (الكهف)؛ لأن قبلها ذكر إبليس وعداوته وذم اتخاذه وذريته أولياء في قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) (الكهف: ٥٠) وفي القرآن بيان عداوته وطرده من رحمة ربه.

لم نجد أحداً قبل ابن جماعة ذكر في توجيه آية (الكهف) ما ذكره، وهذا من انفراداته، وما نجده عند الخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ) والكرماني (ت: نحو ٥٠٥هـ) هو أن ذكر القرآن وتقديمه أهم، وذلك أن اليهود سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، فأوحى الله إليه في القرآن، فكان تقديمه في هذا الموضع أجدر، والعناية بذكره أحرى.

أما تقديم (الناس) في آية (الإسراء) فعلى عادة العرب في تقديم ما عنايتهم به أتم، كما قدم (الإنس) قبلها في قوله تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ)، ففي تقديم (الناس) تنبيههم إلى عظم ما في القرآن، لكي يعنوا بتدبره، ويقفوا عند آياته (ينظر: الإسكافي، ٢٠٠١: ١/٨٦٠-٨٦١، الكرماني: ١٦٥).

وزاد عليهما ابن الزبير الغرناطي (ت: ٧٠٨هـ) وقال: "وأيضاً فلتقل التكرار فيما تقارب، ولو قيل: ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً، لجا لفظ (الناس) كأنه قد أعيد متصلاً، والعرب تستثقل مثل هذا، فقدم المجرور ليستحكم الفصل فلا يستثقل. وأما آية الكهف فلم يتكرر فيها لفظ الناس فيقع استثقال... (ابن الزبير، ٢٠٠٦: ٣١١/٢).

ولابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) توجيه مختلف، فذكر أن آية (الكهف) جاءت على الأصل، فالقرآن أهم من ذكر الناس بالأصالة، ولا مقتضى للعدول عنه (ينظر: ابن عاشور، ١٩٩٧: ١٥/٣٤٦)، وبين عند توجيه آية (الإسراء): "أن ذكر الناس أهم في هذا المقام لأجل كون الكلام مسوقاً لتحديدهم والحجة عليهم، وإن كان ذكر القرآن أهم بالأصالة إلا أن الاعتبار الطارئة تُقدّم في الكلام البليغ على الاعتبار الأصلية" (ابن عاشور، ١٩٩٧: ١٥/٢٠٤-٢١٥)، فكلامه هذا يتفق مع ما قاله ابن جماعة.

وهناك توجيه آخر للآيتين، وهو أن الكلام في (الإسراء) على الناس ثم القرآن، فبدأت السورة بقوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ...) (الإسراء: ١)، ثم الكلام على بني إسرائيل (ينظر: الآيات: ٤-٨)، ثم الكلام على القرآن في قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء: ٩). فكان المناسب تقديم (الناس) على (في هذا القرآن) في آية (الإسراء).

وبدأت سورة (الكهف) بقوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) (الكهف: ١)، أي: بدأت بالكلام على القرآن ثم ذكر أصحاب الكهف (ينظر: الآيات: ٩-٢٦)، وموسى مع الخضر -عليهما السلام- (ينظر: الآيات: ٥٩-٨٢)، وذو القرنين (ينظر: الآيات: ٨٣-٩٨)، فكان المناسب تقديم (في هذا القرآن) على (الناس) في آية (الكهف) (ينظر: فاضل، ٢، ٢٠٠٧، ٦٩-٧٠).

يرى الباحث أن هذه التوجيهات مناسبة للآيتين، والسياق يساندها ويقويها، ولا مانع من جمعها لتوجيه التقديم والتأخير في الآيتين.

### ثانياً/ التقديم والتأخير بين الجار والمجرور والفاعل:

المراد بهذا تقديم الجار والمجرور على الفاعل في آية وتأخيرها عنه في نظيرتها، ووقف ابن جماعة على موضعين في كتاب الله تعالى لتوجيه هذا النوع من التقديم والتأخير، وهما:

- ١- قال تعالى: (بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) (آل عمران: ١٢٦-١٢٥) وقال: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُزْدِفِينَ) (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال: ٩-١٠)

أخر الجار والمجرور (به) عن الفاعل (قلوبكم) في الآية الأولى، وقدم (به) على الفاعل في الآية الثانية، ووجه ابن جماعة هذا الاختلاف في الآيتين ثلاثة توجيهات، الأول: توجيه لفظي لا دلالي، وهو أن آية (آل عمران) ختم فيها الجملة الأولى بجار ومجرور (لكم)، فختمت الجملة الثانية بمثله (به) (ينظر: ابن جماعة، ١٩٩٠، ١٣٢). وتبع في هذا التوجيه الخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ) (ينظر: الإسكافي، ٢٠٠١: ٣٩١/١).

والثاني: توجيه دلالي، وقال: "وأما (به) فلأن المفعول قد تقدم على الفاعل لغرض صحيح من اعتناء، أو اهتمام، أو حاجة إليه في سياق الكلام، فقدم (به) هنا اهتماماً، وجاء في (آل عمران) على الأصل" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ١٣٢)، وهذا توجيه ناقص؛ لأنه لم يبين موطن هذه العناية وسرّها في آية (الأطفال)، واكتفى بتوجيهه آية (آل عمران) أنها جاءت على الأصل، ولم يبين سبب تخصيص هذه الآية بالأصل، ولماذا لم يكن العكس؟.

أما الثالث فقد عبر عنه بقوله: "هو التفنن في الكلام" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ١٣٢)، ونجد هذا التوجيه أيضاً عند أبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) في قوله: "وهنا -أي: في سورة (الأطفال)- قدّم وأخر هناك على سبيل التفنن والاتساع في الكلام" (أبو حيان، ٢٠٠٠، ٢٨٠/٥)، وهذا صحيح إلا أنه غير مقنع؛ لأنه لا يبين سبب التخصيص، ولو قدّم الجار والمجرور على الفاعل في آية (آل عمران) وأخرهما في آية (الأطفال) لكان على سبيل التفنن أيضاً (ينظر: محمد فاضل، ٢٠١٦: ١٩١). وفزق الدكتور فاضل السامرائي بين مقام أو سياق الآيتين، حيث ذُكرت في (آل عمران) معركة بدر تمهيداً لذكر معركة أحد وما أصابهم فيها من قرح وحزن، والمقام مقام المواساة والتصبير ومسح على القلوب وطمأننة لها؛ لذا قدّم (قلوبهم) على الإمداد بالملائكة.

وذُكرت في سورة (الأطفال) معركة بدر وانتصار المؤمنين فيها، فالمقام مقام الانتصار وإبراز دور الإمداد الرباني في هذا النصر؛ لذا قدّم (به) -والضمير في (به) يعود على الإمداد- على الفاعل (قلوبكم) (ينظر: فاضل، ٢٠٠٧، ٧١-٧٢). وهذا التوجيه أقوى من التوجيهات السابقة؛ لما فيه من بيان مقتضى سياق الآيتين للتقديم والتأخير فيهما.

٢- قال تعالى: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) (القصص: ٢٠)

وقال: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) (يس: ٢٠) المراد بالرجل في الآية الأولى رجل مؤمن من آل فرعون (ينظر: الطبري، ٢٠٠١: ٢٠٠/١٨)، وفي الآية الثانية رجل اسمه (حبيب بن مري)، والرسل هم رسل عيسى بن مريم -عليه السلام- إلى قرية أنطاكية، أو كانوا رسلاً أرسلهم الله إليهم (ينظر: الطبري، ٢٠٠١: ٤١٢/١٩، ٤١٩).

التشابه اللفظي هنا جاء في قصتين مختلفتين، حيث أحر الجار والمجرور (من أقصى المدينة) عن الفاعل (رجل) في آية (القصص)، فالترتيب على الأصل، وقدم (من أقصى المدينة) على (رجل) في آية (يس). (و) (من أقصى المدينة) صفة لـ(رجل) في آية (القصص) (ينظر: محيي الدين، ١٩٩٤، ٢٩٦/٧)، ومتعلق بـ(جاء) في آية (يس) (ينظر: محيي الدين، ١٩٩٤، ١٨٧/٨)، قال الكرمانى (ت: نحو ٥٠٥هـ): "وقوله: (مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) يحتمل ثلاثة أوجه، أحدها أن يكون من أقصى المدينة صفة لـ(رجل)، والثاني أن يكون صلة لـ(جاء)، والثالث أن يكون صلة لـ(يسعى)، والأظهر في هذه السورة -أي: القصص- أن يكون وصفاً، وفي (يس) أن يكون صلة" (الكرمانى: ١٩٤).

ويبين ابن جماعة سبب هذا الاختلاف في نظم الآيتين بقوله: "إن الرجل هنا -أي: في (القصص)- قصد نصح موسى - عليه السلام- وحده لما وجدته، والرجل في (يس) قصد من أقصى القرية نصح الرسل ونصح قومه، فكان أشد وأسرع داعية، فلذلك قدم قاصداً (مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ)؛ لأنه ظاهر صريح في قصده ذلك من أقصى المدينة" (ابن جماعة، ١٩٩٠،

٢٨٤-٢٨٥). أي: الرجل في آية (القصص) أرد نصح موسى -عليه السلام- وحده، وكان ناصحاً ولم يكن داعياً إلى الإيمان، والرجل في آية (يس) قصد نصح قومه ودعوتهم إلى الحق والإيمان، فكان أكثر حرصاً عليهم وأشدّ سرعةً إليهم. وما ذكره ابن جماعة في آية (يس) قريب مما ذكره الكرمانى (ت: نحو ٥٠٥هـ) -وتبعه آخرون (ينظر: الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ٣٥٥/١، النيسابوري، ١٩٩٦: ٣٣٣/٥، الأنصاري، ١٩٨٣: ٤٢٩)- في قوله: "وخصت سورة (يس) بقوله: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) لَمَّا جَاءَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّهُ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فِي جَبَلٍ، فَلَمَّا سَمِعَ خَبَرَ الرَّسْلِ سَعَى مُسْتَعْجِلاً" (الكرمانى: ١٩٤)، أي: التقديم يدل على أنه كان سعيه مستعجلاً وسريعاً إليهم.

ولم يذكر الكرمانى ومن تبعه في آية (القصص) سوى المناسبة اللفظية بين الرجل فيها وذكر رجلين قبلها في قوله تعالى: (فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ) (القصص: ١٥) (ينظر: الكرمانى: ١٩٤، الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ٣٥٥/١، الأنصاري، ١٩٨٣: ٤٢٩). ورأى الإمام البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) في آية (القصص) أنه "لما كان الأمر مهماً، يحتاج إلى مزيد عزم وعظم قوة، قدّم فاعل المجيء على متعلقه" (البقاعي، ١٩٩٥: ٤٧٤/٥)، والذي يدل على القوة والعزيمة هو لفظ (الرجل)؛ لذا قدّم وأضاف ابن جماعة عند توجيهه مسائل سورة (يس) "أن الرجل جاء ناصحاً لهم في مخالفة دينهم، فمجيئه من البعد أنسب لدفع التهمة والتواطى -هكذا ورد، والصواب: التواطؤ- عنه، فقدم ذكر البعد لذلك. وفي (القصص) لم يكن نصحه لتترك أمر يشق تركه كالدين بل لمجرد نصيحة، فجاء على الأصل في تقديم الفاعل على المفعول الفصلة" (ابن جماعة، ١٩٩٠، ٣٠٤). وهذا توجيه آخر محتمل.

لا شك أن المعنى مختلف في الآيتين، خلافاً لأبي جعفر النحاس (ت: ٣٣٨هـ) الذي رأى أن المعنى واحد (ينظر: النحاس، ١٩٨٨: ٣٨٨/٣)، فالمعنى في آية (يس) أن مجيء الرجل كان من أقصى المدينة، أما في آية (القصص) فيحتمل المعنى أن مسكن الرجل كان في أقصى المدينة (ينظر: فاضل، ١، ٢٠٠٧: ٩٣/٣)، "ونحو هذا أن تقول: (قدم من القرية رجل)، و(قدم رجل من القرية)، فمعنى الأولى أن قدومه كان من القرية، وأما الثانية فتحتمل هذا المعنى وتحتمل أن الرجل قروي، أي هو من أهل القرية، وربما لم يكن قدومه هذا من القرية" (فاضل، ١، ٢٠٠٧: ٩٣-٩٤). وعلى هذا يمكن القول بأن الرجل في آية (يس) "جاء من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية، وحيث لا يقرب من مجاري القصة ولا يحضر موضع الدعوة ومشهد المعجزة، فقدّم ما تبيّنت القوم به أعظم، والتعجب منه أكثر، فقال: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ)، ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم، ولا ينصح لهم أقربوهم مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه، ولم يشاهد من كلام الأنبياء ما يشاهدونه، فبعثهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم.

وأما الآية الأولى من سورة (القصص) فإن المراد: جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاوراً لمكانه، فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به، فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدّم ما أصله التقديم وهو الفاعل، إذ لم يكن هنا تبيّنت للقوم بكونه من أقصى المدينة كما كان ذلك في الآية المتقدمة" (الإسكافي، ٢٠٠١: ١٠٨٤-١٠٨٥). ومن القدامى والمحدثين (ينظر: المطعني، ١٩٩٢: ١٨٧/٢، علي، ٢٠٠٦: ٨٠٧/٣) من وجه آية (يس) فقط، واكتفى في آية (القصص) بأنها جاءت على الأصل، وهذا غير مقنع؛ إذ لا يبيّن سبب تخصيصها بالمجيء عليه، ومن القدامى أبو يعقوب السكاكي (ت: ٦٢٦هـ) الذي وجه آية (يس) بقوله: "في قصة موسى... ذكر المجرور بعد الفاعل وهو موضعه، وقال في (يس) في قصة رسل عيسى -عليه السلام-: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ)، فقدم لما كان أهم، يبيّن ذلك أنه حين أخذ في قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية الرسل، وأنهم أصروا على تكذيبهم، وانهمكوا في غوايتهم مستمرين على باطلهم، فكان مظنة أن يلعن السامع، على مجرى العادة، تلك القرية قائلاً: ما أنكدها تربة، وما أسوأها

منبتاً، ويبقى مجيلاً في فكره أكانت تلك المدرة بحافاتهما كذلك، أم كان هناك قطر دان أو قاص منبت خير، منتظراً لمساق الحديث، هل يلم بذكره؟ فكان لهذا العارض مهماً فكما جاء موضع له صالح ذكر بخلاف قصة موسى " (السكاكي، ٢٠٠٠: ٣٤٤). فالمقدم كأنه جاء بعد انتظار وشوق، وقدم لأنه أهم من المؤخر، وهو المنتظر والمشوق إليه (ينظر: علي، ٢٠٠٦: ٨٠٧/٣-٨٠٨)، وهذا توجيه يبين جمالية أسلوب القرآن في نظمه.

ومنهم ابن الزبير الغرناطي (ت: ٧٠٨هـ) الذي ذكر في آية (يس) أن المقصود فيها "من بغد مسافة عن داعيه إلى الهداية، فلم يضره بُعد الدار، وكفر من باشر الرسل وشافهم، فلم ينتفع بقرب الدار... وحاصل الإخبار من هذه الآيات مثال لحال كفار قريش من أهل مكة، وحال الأنصار من أهل المدينة، حين جاء هؤلاء وآمنوا به -صلى الله عليه وسلم- مع بعد دراهم، وعاند عتاة قريش، فكفروا مع الالتحام في النسب واتحاد الدار..." (ابن الزبير، ٢٠٠٦: ٣٨٣/٢)، أي: الأهم في هذا الموضع بيان المسافة التي جاء منها الرجل، وفيها إشارة إلى حال كفار قريش، وحال الأنصار، ف"قدم مكان المجيء على فاعله بياناً لأن الدعاء نفع الأقصى ولم ينفع الأدنى" (البقاعي، ١٩٩٥، ٢٥٢/٦)، وهذا توجيه دقيق تستمتع به النفوس وترتاح إليه.

والتوجيهات السابقة غير متدافعة ولا متناقضة، بل هي متكاملة، يساند بعضها بعضاً، فالمتقدم (من أقصى المدينة) -وقد تنوع توجيهه- في آية (يس) هو المنتظر، وفيه إيذان باستعجال الرجل في السعي، وفيه ثناء على أهل أقصى المدينة، وفي سعي الرجل من أقصى المدينة إلى الإيمان تعريض بالذم والتبكيك والتوبيخ للمعارضين من أهل المدينة (ينظر: علي، ٢٠٠٦: ٨٠٨/٣).

وأما المتقدم في آية (القصص) فإنه يدل على أنه جاء على ما لم يعرفه موسى -عليه السلام- من مكان لم يكن مجاوراً لمكانه، فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، ولم يكن نصحه لتترك أمر يشق تركه كالدين بل لمجرد نصيحة، فجاء على الأصل في تقديم الفاعل، هذا فضلاً عن المناسبة اللفظية بين ذكر الرجل في الآية وذكر رجلين قبلها.

### ثالثاً/ التقديم والتأخير بين الجار والمجرور والمفعول الثاني:

استوقف ابن جماعة موضع واحد فيه التقديم والتأخير بين الجار والمجرور والمفعول الثاني، حيث أحر الجار والمجرور عن المفعول الثاني في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًّا ثَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل: ١٤)، وقدما عليه في قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبًّا ثَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (فاطر: ١٢).

ووجه ابن جماعة هذا التقديم والتأخير في الآيتين بقوله: "إن آية (النحل) سيقت لتعداد النعم على الخلق بدليل تقديم قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ). وآية (فاطر) سيقت لبيان القدرة والحكمة بدليل قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ) (فاطر: ١١)..."

وقدم (مواخر) على (فيه)؛ لأنه امتن عليهم بتسخير البحر، فناسب تقديم (مواخر) أي: شاقة للماء، وأيضاً ليلي المفعول الثاني المفعول الأول ل (ترى) فإنه أولى من تقديم الظرف... وقدم (فيه) على (مواخر)؛ لأن شق الفلك الماء لجريانه فيه آية من آيات الله تعالى، فالتقدم (فيه) أنسب للفلك " (ابن جماعة، ١٩٩٠، ٢٢٦).

المواخر واحدها ماخرة، والمخر في اللغة: الشق، يقال: مخرت السفينة تمخر، إذا شقت الماء وسمع لها صوت، وذلك عند هبوب الرياح (ينظر: الفراء: ٩٨/٢).

ذكر ابن جماعة أن الترتيب النحوي في آية (النحل) جاء على الأصل، حيث جاء المفعول الأول ثم الثاني ثم الجار والمجرور (فيه)، وهذا يدل على أن (ترى) عنده -وهكذا عند غيره (ينظر: الإسكافي، ٢٠٠١: ٨٣٤/١، الكرمانى: ١٥٨، الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ٢٨١/١، النيسابوري، ١٩٩٦: ٢٤٩/٤، السيوطي، ١٩٨٨: ٣٤٥/٢، الأنصاري، ١٩٨٣: ٣٠٢)- في هذه الآية من أفعال القلوب بمعنى (علم). ورأى آخرون أن (ترى) فعل بصري، وتعدى إلى مفعول واحد، وحينئذ تكون (مواخر) حالاً (ينظر: محيي الدين، ١٩٩٤: ٢٧٩/٥، محمد فاضل، ٢٠١٦: ١٩٢).

والمراد بتوجيه ابن جماعة بيان الاختلاف بين سياق الآيتين، وأثر هذا في التقديم والتأخير فيهما، ففي سياق آية (النحل) بيان نعم الله تعالى على خلقه وتعدادها، ومنها تسخير البحر على هيئة يمكن معها السير بالفلك، وشقها ماء البحر، وعدم غرقها؛ لذا قدم (مواخر) على (فيه). أما سياق آية (فاطر) وإن كان مشوباً بالامتنان إلا أن بيان قدرة الله وحكمته في خلقه في سياقها هو الأظهر، ومن آياته العظيمة طفو الفلك على ماء البحر ومخرها فيه.

انفرد ابن جماعة بهذا التوجيه، لم يقل به أحد قبله، وإليه ذهب الالكوسي (ت: ١٢٧٠هـ) (ينظر: الالكوسي، ١٩٩٤: ٣٥٣/١)، وابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ)، وأوضح في تفسير آية (فاطر) أن "المقصد الأول من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع فهو الأهم هنا. ولما كان طفو الفلك على الماء حتى لا يغرق فيه أظهر في الاستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة والامتنان قدم ما يدل عليه، وهو الظرفية في البحر. والمخر في البحر آية صنع الله أيضاً بخلق وسائل ذلك والإلهام له... فأخر هنا لأنه من مستتبعات الغرض لا من مقصده، فهو يستتبع نعمة تيسير الأسفار لقطع المسافات التي لو قطعت بسير القوافل لطالت مدة الأسفار" (ابن عاشور، ١٩٩٧: ٢٨٠/٢٢).

لا نجد عند من سبق ابن جماعة إلا ذكر التناسب اللفظي في توجيه التقديم والتأخير في هاتين الآيتين، قال الخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ): "وأما تقديم (مواخر) في هذا المكان على قوله: (فيه) فلقوة حكم الفعل الذي اعتد الله تعالى بذكره على عباده في هذه الآية، لأنها مصدرية بقوله: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ)، وإذا قوي حكم الفعل في مكان وجب أن يترتب ما يتعدى إليه على ما يقتضيه في الأصل، وهو أن يقدم في الفعل المتعدي إلى مفعولين مفعوله الأول الذي أصله أن يكون معرفة، ثم مفعوله الثاني الذي أصله أن يكون نكرة، ثم الظرف...

وأما تقديم (فيه) في الآية الأخرى على (مواخر) فلأن الفعل الذي قدم فيها، وعطف هذا عليه بولغ في تقديم الجار والمجرور فيه مبالغة لا مرمى وراءها، ولا زيادة عليها، ألا تراهما قدما على الفعل نفسه، وهو: (وَمَنْ كُلُّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا ظَرِيًّا)، فلما عرض قوله: (وترى الفلك) بعد فعل هذه صفته، وقد حصل فيه مفعولان، وجرار ومجرور قوي تقديم الجار والمجرور (فيه) على أحد مفعوليه؛ ليعلم أنه من جملة كلام بني الفعل فيه على تقديم الجار والمجرور عليه" (الإسكافي، ٢٠٠١: ٨٣٣/١-٨٣٤).

وأوجز من هذا قول ابن الزبير (ت: ٧٠٨هـ): "إن آية (النحل) بنيت على تأخير المجرورات عما تعلقت به، وجرى الكلام جرياً واحداً للتناسب والتشاكل، فقليل: لتأكلوا منه، وتستخرجوا منه، ومواخر فيه... أما آية (الملائكة) فمبنية على تقدم المجرور على ما به تعلق، قال تعالى: (وَمَنْ كُلُّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا ظَرِيًّا)... (ابن الزبير، ٢٠٠٦: ٢٩٦/٢).

وهناك من اكتفى في توجيه آية (النحل) بأنها جاءت على الأصل، وذكروا في توجيه آية (فاطر) أنها مبنية على تقدم الجار والمجرور (ينظر: الكرمانى: ١٥٨، الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ٢٨١/١، النيسابوري، ١٩٩٦: ٢٤٩/٤، السيوطي، ١٩٨٨: ٣٤٥/٢، الأنصاري، ١٩٨٣: ٣٠٢)، أو ذكروا أن سبب تقديم الجار والمجرور في آية (فاطر) على (مواخر) هو تعلق (لِتَبْتَغُوا

من فَضْلِهِ) به. والتقدير: وترى الفلك فيه تمخر الماء لتبتغوا من فضله، فأخر (مواخر) ليجاور معموله (لتبتغوا)، والأصل عدم الفصل بينهما (ينظر: النيسابوري، ١٩٩٦: ٢٤٩/٤، المطعني، ١٩٩٢: ١٧٩/٢-١٨٠). وهذا توجيه نحوي دلالي. وفزق الدكتور فاضل السامرائي بين سياق الآيتين وما يتعلق به من التقديم والتأخير، فذكر أن سياق آية (النحل) سياق وسائط النقل، حيث ذُكرت قبلها الأنعام وأنها تحمل الأثقال لنا، والخيل والبغال والحمير لتركبها، ثم ذكرت الفلك، وهي وسيلة نقل أيضاً، وقدم (مواخر)؛ لأنها من صفات الفلك. وفي آية (فاطر) الكلام على البحر وأنواعه وما فيه من النعم؛ لذا قدم ضمير البحر (فيه) على صفة الفلك (مواخر) (ينظر: فاضل، ٢، ٢٠٠٧: ٦٨). لا يكفي القول في توجيه الآيتين بالتناسب اللفظي فقط؛ لأن هذا لا يبيّن سبب بناء آية منهما على الأصل وأخرى على خلافه؛ لذا من الضروري اللجوء إلى المناسبة المعنوية التي تبيّن ذلك السبب، ووجدناها في توجيه ابن جماعة والسامرائي للآيتين، وسياق الآيتين يحتمل كلا التوجيهين.

### النتائج

بعد هذا الجهد المتواضع لبيان توجيهات ابن جماعة الدلالية للتقديم والتأخير في الآيات المتشابهة الألفاظ لا بد من بيان أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وهي:

- ١- لم يذكر المؤلف عالماً نقل عنه، وهذا لا يدل على أنه لم يتأثر بمن سبقه، بل تأثر بهم في مواطن من كتابه -كما تبين-.
- ٢- نجد لتوجيهات ابن جماعة أثراً في توجيهات من جاء بعده، مثل الألوسي وابن عاشور والدكتور محمد محمد داود.
- ٣- راعى في توجيهاته غالباً سياق الآيات، وأدى هذا إلى دقة توجيهاته وقوته. والسياق هو الأهم للتوجيه الدلالي للآيات المتشابهة الألفاظ.
- ٤- انفرد بتوجيه بعض الآيات، مثل: توجيهه التقديم والتأخير بين (خلق السموات والأرض) و(اختلاف الليل والنهار)، والتقديم والتأخير بين النذير والبشير، والتقديم والتأخير بين قارون وفرعون.
- ٥- قرر بعض القواعد للتوجيه، كما قرر قاعدة في تقديم النفع على الضر وتأخيره عنه. وقاعدة في تقديم اللهو على اللعب وتأخيره عنه.
- ٦- لا يكفي القول في التقديم والتأخير في المتشابه اللفظي بالتفنن والاتساع في الكلام، كما قال به ابن جماعة وغيره في توجيه بعض الآيات؛ لأن هذا القول لا يبيّن سبب تخصيص آية بالتقديم وأخرى بالتأخير. ومهمة الموجه للآيات المتشابهة الألفاظ أن يبيّن سبب تخصيص كل آية بما حُصّت به.
- ٧- لا يكفي القول في التقديم والتأخير في المتشابه اللفظي بأن لفظاً ما جاء على الأصل في الترتيب؛ لأن هذا القول لا يبيّن سبب تخصيص آية بالتقديم وأخرى بالتأخير، ولم نجد هذا عند ابن جماعة، وهذا يدل على أنه غير مقبول عنده.

### المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ابن الأثير الكاتب [أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي (ت: ٦٣٧هـ)]، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.

٣. ابن جماعة [أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (ت: ٧٣٣هـ)]، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: د. عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٤. ابن الزبير الغرناطي [أحمد بن إبراهيم أبو جعفر (ت: ٧٠٨هـ)]، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، تحقيق: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٥. ابن عاشور [محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)]، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، د.ط، ١٩٩٧م.
٦. أبو حيان الأندلسي [محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين (ت: ٧٤٥هـ)]، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠٠٠م.
٧. أبو السعود العمادي [محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)]، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
٨. أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى التيمي البصري (ت: ٢٠٩هـ)، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فواد سزغين، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، ١٩٦١م.
٩. أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، الصاحب في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: د. عمر فاروق الطَّبَّاع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
١٠. الأنصاري [أبو يحيى زكريا بن محمد بن أحمد بن (ت: ٩٢٦هـ)]، فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
١١. الألويسي [شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت: ١٢٧٠هـ)]، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
١٢. البقاعي [إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (ت: ٨٨٥هـ)]، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، ١٩٩٥م.
١٣. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، ١٩٩٤م.
١٤. الجرجاني [أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت: ٤٧١هـ)]، دلائل الإعجاز، تحقيق: د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
١٥. الخطيب الإسكافي [أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٢٠هـ)]، درة التنزيل وغرة التأويل، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى أيدين، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
١٦. رابح بو معزة، التحويل في النحو العربي، دار ومؤسسة رسلان، دمشق، سوريا، ٢٠٠٨م.
١٧. الزركشي [محمد بن بهادر بن عبد الله أبو عبد الله (ت: ٧٩٤هـ)]، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، د.ط، ١٩٧١م.
١٨. الزمخشري [أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (ت: ٥٣٨هـ)]، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
١٩. السكاكي [أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي (ت: ٦٢٦هـ)]، مفتاح العلوم، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٢٠. سيبويه [أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت: ١٨٠هـ)]، كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، د.ت.

٢١. السيوطي [عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت: ٩١١هـ)]، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
٢٢. الطبري [أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي (ت: ٣١٠هـ)]، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٢٣. الطوفي [سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم البغدادي (ت: ٧٣٦هـ)]، الإكسير في علم التفسير، تحقيق: د.عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت.
٢٤. عز الدين محمد الكردي، التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
٢٥. علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٢٦. فاضل صالح السامرائي:
- ١- معاني النحو، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- ٢- التعبير القرآني، د.فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، الأردن، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٧م.
٢٧. الفراء [أبو زكريا يحيى بن زياد (ت: ٢٠٧هـ)]، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي نجار وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار المصرية، مصر، الطبعة الأولى، د.ت.
٢٨. الفيروزآبادي [مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت: ٨١٧هـ)]، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، عام النشر: ج ١، ٢، ٣: ١٩٩٦م، ج ٤، ٥: ١٩٩٢م، ج ٦: ١٩٧٣م.
٢٩. الكرمانلي [محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين (ت: نحو ٥٠٥هـ)]، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، د.ط، د.ت.
٣٠. المبرد [أبو العباس محمد بن يزيد (ت: ٢٨٥هـ)]، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، د.ط، ١٩٩٤م.
٣١. محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، جامعة متوبة، تونس، بالاشتراك مع المؤسسة العربية للتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٣٢. محمد فاضل صالح السامرائي، دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب (ملاك التأويل)، تقديم: أ.د. حسام سعيد النعيمي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.
٣٣. محمد محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، دار غريب، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٨م.
٣٤. محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت: ١٤٠٣هـ)، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص، سوريا، دار اليمامة، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤م.
٣٥. المطعني [عبد العظيم إبراهيم محمد (ت: ١٤٢٩هـ)]، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
٣٦. النحاس [أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (ت: ٣٣٨هـ)]، إعراب القرآن، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م.
٣٧. النيسابوري [نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي (ت: بعد ٨٥٠هـ)]، غرائب القرآن وרגائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
٣٨. هلال محمد عبد الفضيل أحمد، توازي المباني والمعاني في متشابه لفظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠١٥م.

